فقه السعادة عند رسل: بين رفض التقليد والدعوة إلى التجديد

علي جودي*

لم يكن اختياري موضوع هذا المقال من باب الصدفة، إذ تخمرت هذه الفكرة من خلال إطلاعي على أهم مؤلف لبرتراند رسل الذي عنونه بالفوز بالسعادة، ومن ثمة لاحظت مدى التباين بين موقفه ومواقف الفلاسفة السابقين، لاسيما إذا كانت مسألة تحصيل السعادة من أعرق المشكلات الفلسفية التي حظيت باهتمام الإنسان، فكانت محاولات الإجابة على هذا السؤال مع فلاسفة اليونان، إذ كان الهدف الأسمى لفلسفتهم الأخلاقية هو تحقيق السعادة، حيث اهتدى أفلاطون أن تحقيق السعادة يقتضي معرفة الخير والشر وممارسة الفضائل والتحلي بالقيم الأخلاقية، وضرورة طلب اللذات العقلية والروحية، أما أرسطو، فقد اعتبر السعادة هبة من الله، شروطها صحة البدن وسلامة الحواس والنجاح في العمل وسلامة العقل والاعتقاد والسمعة الطيبة والاستحسان من الناس، مع ضرورة مراعاة القيم الأخلاقية ذات البعد الروحي كالشجاعة والعفة والأمانة، وتأكيده على أهمية الالتزام بالوسط المعتدل والوسطية في سلوكاتنا.

يلاحظ أن هذا الموقف سيتجلى أيضا عند فلاسفة الإسلام، فكانت نظرتهم للسعادة مقترنة بالفضائل العقلية واستهداف اللذات الروحية وازدراء اللذات الحسية، فالفارابي ينفي أن تكون السعادة بالمنافع الحسية ولذة التملك، بل أن السبيل إلى ذلك يكون بالحكمة والعقل والمنطق وإدراك الفضيلة، ويضيف قائلا في كتابه فصول منتزعة من أقاويل القدماء، فإن كانت تلك الأفعال خيرات، كان الذي يحصل لنا هو الفضيلة، وإن كانت شرورا، كان الذي يحصل لنا هو الرذيلة، أما ابن سينا مثله مثل الغزالي والسهراوردي وبقية المتصوفة، يبين في كتابه النجاة في معاد الأنفس الإنسانية أن السعادة الحقيقية هي سعادة الروح وتطهيرها من الآثامن أما ابن مسكويه فيرى أن الذين يربطون حياتهم بالمتع المادية وإتيان الملذات الدنيوية هم أشبه بالحيوانات، وبذلك يؤكد على وجوب التمسك بالعقل باعتباره خاصية الكائنات الناطقة..

كل هذه الأطياف الفكرية المتعارضة، تدفعنا إلى التساؤل من جديد حول سبل تحقيق السعادة، خاصة بعد ظهور إشكالية أزمة العالم الحديث كما عرفها الغرب، وهي الأزمة التي أحدثت ارتجاجا في الأوساط

---

* - طالب دكتوراه – جامعة وهران2.

Abstract: The subject of this article is why man feel unhappy in his life, then what are the main reasons which can justify this lack of happiness, and what should man do to be able to live cheerfully, Here comes the point of view of Bertrand Russell to bring his contributions in order to make true the happy life possible, He should first according to him to far away of social imitation, And think freely, Also keeping in touch the ethics values in the science field.
Keywords: happiness, unhappiness, science, ethics, society.

الفكرية والتي انتهت بخلخلة في المفاهيم والتصورات، حيث كان يُعتقد أن الجوانب المادية قادرة على توفير قدر من السعادة للفرد، لاسيما إذا كان من خصائص هذا العصر الاعتماد على المبتكرات العلمية ووضع الثقة في العلم بشكل ملفت للانتباه، مادام يستجيب لجل المتطلبات المادية، وهذا ما لم يتحقق دوما، إذ ارتبطت يوميات الأفراد بكثير من القلق واليأس والخوف من المجهول بعد أن شهد العالم الكثير من المآسي والحوادث المفجعة، فبدى هذا الواقع أبعد ما يكون عن أمنية السعادة، وستكون الإجابة عن هذه التساؤلات منسوبة إلى أحد الفلاسفة المعاصرين وهو الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل، وسنطرح رأيه في كيفية تحصيل السعادة وما يحول بين الإنسان وسعادته من أسباب.

اللاهوت والتعاسة الإنسانية

يبدأ رسل بتوجيه جملة من الانتقادات على الاتجاه الديني الكاثوليكي، لاسيما فيما تعلق بأساليب التفكير ويعني هذا إيمان الإنسان الجازم بأنه على حق، وبأن سواه على باطل دون أن تتوفر لديه أية معرفة يقينية، فالمذهب المسيحي أو المذهب الشيوعي كلاهما يحمل في طياته التعصب، والتعصب يشعل الأحقاد ويثير البغضاء ويقضي على فضيلة العقل والتسامح في الإنسان ويؤكد أنه على الإنسان أن يحيا حياة العقل وأن يسعى إلى خير الإنسانية فيقول: «أنا لا ازعم أنني استطيع أن أقدم القدر الكبير من السعادة التي يمكن تحقيقها فيما لو تخلينا عن الاحتكام لمنطق العقل، كما أنني لا ازعم أنني أستطيع أن أقدم ذلك القدر الكبير من السعادة التي يمكن أن تتوفر عن طريق تناول الخمور أو المخدرات أو جمع ثروة عريضة من الاحتيال على الأرامل واليتامى، وليست السعادة الفرد الذي يتحول على فلسفتي ويدين بها هي التي تهمني، فالذي يهمني هو سعادة الإنسانية»[1]. ومن هذا المنطلق، يدعو رسل إلى الإيمان بما يثبته العقل ويؤيده المنطق، ويفضل أن يعيش في الشك من أن يؤمن بمبدأ قائم على الوهم،لا فضيلة فيه سوى أنه مريح، فالشك أولى حتى إذا كان مفضيا إلى الألم وخيبة الأمل، وفي هذا الإطار يهاجم رسل البراغماتية التي تعبر عن البيئة لأمريكية، فهي تعبر عن الثورة الصناعية للقرن الماضي وتتسق مع عصر الصناعة وتأثيراته[2]، لأنها تقبل الدين مثلا لا على أنه قائم على حقائق بل على أنه مريح ويخدم أغراض نفعية، فهو ينجح في جعل الإنسان في وئام وسلام مع نفسه وسلام خارجي مع المجتمع الذي يعيش فيه.

ويريد رسل من الإنسان أن ينفض عن نفسه غبار الأوهام الجميلة والأحلام العذبة ليجابه الحقائق المرة وجها لوجه دون ضعف أو وهن، وكمثال على ذلك، فإن كان أحد الأقارب مريضا، فإنه من الضروري القبول بالتشخيص الطبي مهما كان غير أكيد وغير مشجع، أما ّإذا قبلت رأي طبيب دجال يبعث على التفاؤل والارتياح ويموت هذا القريب على إثر ذلك، فلن تعفيك بهجة إيمانك بالطبيب الدجال التي تحس بها أثناء مرض هذا القريب. ويكشف لنا رسل هذه الوقائع باستقراء بعض فترات التاريخ، التي تتضمن قمة

1 رمسيس عوض، رسل مفكر سياسي، دار الطباعة والنشر، القاهرة ،1966، ص 86.

2 محمد مهران، مقدمة في الفلسفة معاصرة، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2004، ص 73.

التعصب وذروة الاضطهاد فيقول: «لقد كان الحماس الديني حينذاك نتاج للخوف واليأس، وهذا هو الحال مع الحماس في عصرنا الحالي سواء كان مسيحيا أو شيوعيا وهو رد فعل لا عقلي ضد الخطر يجنح إلى خلق ما يخشى خلقه، والخوف من القنبلة الهيدروجينية يولد التعصب، ومن المحتمل أن يقودنا التعصب أكثر من أي شيء أخر إلى استعمال القنبلة الهيدروجينية فعلا.[1]»

وبناءً على هذا يعتقد رسل أن التقاليد تشكل أكبر مصادر للسيطرة على أراء الناس، وأن الدين يحتضن التقاليد ويباركها، فيهاجم رسل الدين باعتباره قوة رجعية تحارب الإصلاح والتجديد، وكل محاولة لتخفيف ويلات الإنسانية، ويشهد على ذلك موقف رجال الدين في انكلترا من المشاكل العمالية، فقد كانت الكنيسة تقف في وجه كل مطالبة بتحسين أجور العمال والعمل في المصانع، مما يدل على أن الدين يشجع الاحتفاظ بالأوضاع القائمة ولا يسمح بالتطور، وفي أمريكا كان رجال الدين يقفون بالمرصاد لحركة تحرير العبيد، كما كانت الكنيسة في بلجيكا تبارك الأعمال الوحشية التي يرتكبها المستعمرون في الكونغو، وتعترض على محاولة الاشتراكيين والأحرار لوقف هذه الأعمال الفظيعة فيقول رسل في هذا الصدد: «وليس هناك شك في أن العالم المسيحي كان سيربح من الناحية الأخلاقية والأدبية باندثار الكنيسة، لو أن هذا تحقق في أية فترة من الستمائة الماضية.[2]»

ومن بين الأفكار التي يعتقد رسل أنها ضارة بالإنسان الزهو والافتخار سواءً أكان في الجنسية أو في العنصر أو في الطبقة أو العقيدة، ومن أشد الأوهام حسب رسل ضررا على الإنسانية أن يدخل في روع الإنسان واعتقاده أنه مبعوث العناية الإلهية أو أنه يؤمن بأنه أداة لتنفيذ الإرادة الإلهية سواء كان هذا في مجال الدين أو السياسة، لأن هذا الإيمان يفضي حتما المتمثلة في القضاء على الكاثوليك الأشرار، وكان هيغل يعتقد أن الجدلية بمنطقها المحتوم قد وفرت التفوق والامتياز لألمانيا، وماركس قال ليس للتفوق لألمانيا بل للبروليتاريا.

فالمؤكد إذاً في نظر رسل، أن الدين مسؤول عن الكثير من مظاهر القسوة في هذا العالم، وخاصة إذا اتخذ صورة قهر البدن كما تتجلى في المسيحية، فالقديسون الذين يقهرون أبدانهم ويحرمون أنفسهم من لذات الحياة وملذاتها ولا يحتفلون بلذة ماعدا اللذة العقلية والذهنية، فقاهر البدن لا ينتبه إلى أن اللذات العقلية لا تخلو من ضرر جسيم أيضا، فإن كانت اللذة العقلية أفضل اللذات فإنها تحمل على خطورة إن كانت عقلية صرفة فإنكار اللذات الحسية ينفي مشاعر الشفقة والتسامح، فعندما يعذب إنسان نفسه، يشعر أن هذا العذاب يمنحه الحق في تعذيب الآخرين، فالبعض يرى حتى أن الترف هو شر، والعمل الشاق على أنه الواجب الأساسي والفقر العام الشامل على أنه الوسيلة لتحقيق الفردوس الأرضي، فالجمع بين قهر البدن والقسوة ساهمتا في الزيادة من قبضة التزمت المسيحي بل أخذت أشكالا أكثر تطرفا تناصب

1 رمسيس عوض، رسل المفكر السياسي، ص 87.

2 المرجع نفسه، ص 90.

العداء حتى للمسيحيين ذاتهم[1]، في هذا المقام، يقدم لنا رسل العديد من الأمثلة التي تثبت ضلوع الكنيسة والعقائد الدينية في معاناة الكثير من الناس، فكرست الوهم والخرافة وأفشلت مساعي إعمال العقل والمنطق، حيث أنه في العصور الوسطى كانت تستعمل أساليب عقائدية في الاستشفاء، فكثيرا ما كان على سبيل المثال، الطاعون والأوبئة الفظيعة التي انتشرت في القرون الوسطى ترد إلى الشياطين أحيانا وغضب الله أحيانا أخرى[2]، ويؤكد هذه الحقائق رسل بالقول:»وكما رأينا فقد سعى خلال القرون الوسطى إلى الوقاية من الأمراض والشفاء منها بوسائل قائمة على الخزعبلات أو بوسائل تعسفية لا منطق فيها تماما.[3]»، وأكثر من هذا فظاعة فإن الكنيسة حسب رسل رفضت حتى التلقيح ضد الجذري، فاشترك كثير من قساوسة اسكتلندا في إعداد بيان جاء فيه أن التلقيح يعتبر محاولة لإصابة حكم الله وتقديره بالارتباك[4]، ورفض رجال الدين أيضا التخدير للحيلولة دون التخفيف من معاناة الإنسانية، ففي عام 1847، اقترح الجراح السير جيمس سيمسون[5]، استخدام التخدير في حالات الولادة، ولكن رجال الدين اعترضوا على ذلك وذكروه بأن الله قال لحواء: «بالوجع تلدين أولادك»، فكيف إذن يتحقق ذلك إذا كانت المرأة تحت تأثير الكلوروفورم[6] .؟ ويتضح عداء الدين لصالح الإنسانية أيضا عندما ندرك أن الكثير من رجال الدين يجدون متعة في عذاب النساء ويتمسكون بأية قواعد لاهوتية أو أخلاقية من شأنها أن تفرض عليها واجب الضرر على تحمل الألم والعذاب حتى وإن وجدت وسائل وحلول معقولة لتجنبها.

لقد تسبب اللاهوت حسب رسل في إلحاق الأذى بالإنسان، وأكثر من ذلك جعل من هذه الممارسات أخلاقا سامية، إن الضرر الذي ألحقه اللاهوت لا يتلخص في خلق نوازع القسوة بل أيضا في إضفاء الشرعية على التظاهر بالأخلاق السامية، وإضفاء ما يبدو أنه قداسة على ممارسات ترجع إلى عصر أكثر جهلا وبربرية[7]، فوقفت الكنيسة أيضا ضد تحديد النسل واعتبرته فعلا مخجلا وشريرا في جوهره فيقول البابا، كما يخبرنا رسل، عن الذين يمارسون تحديد النسل «إنهم يرتكبون خطيئة ضد الطبيعة كما يرتكبون فعلا مخجلا وشريرا في جوهره، فلا عجب إذن إذا كان الكتاب المقدس يشهد بأن الله العلي جل جلاله ينظر إلى هذه الجريمة النكراء بأكبر قدر من المقت والكراهية وأنه أحيانا عاقب مرتكبها بالموت». أما ممارسة الإجهاض، فقد عارضته الكنيسة بشدة في كل الحالات لأسباب طبية أو شفائية، أي عندما يكون من الضروري إنهاء الحمل لإنقاذ حياة الأم، فإنه لا يبرر الإجهاض حسب موقف الكنيسة، فيقول رسل: يقول البابا في هذا الشأن: «ما من سبب على الإطلاق يبرر قتل الأبرياء بطريقة مباشرة، وسواء كان هذا القتل من

1 رمسيس عوض، رسل مفكر سياسي، ص70 .

2 رسل، الدين والعلم، دار الهلال، مصر،1997، ص 82.

3 المصدر نفسه، ص 98.

4 المصدر نفسه، ص 101.

5 المصدر نفسه، ص 102.

6 المصدر نفسه، الصفحة نفسها

7 المصدر السابق، ص103 .

نصيب الأم أو الطفل، فإنه ضد تعاليم الله وقانون الطبيعة الناهي عن القتل[1]».

إذن الدين واللاهوت يشيعان الخوف والاضطهاد، باعتبار أن الخوف من الجحيم يمثل مصدر قلق ورعب والذي كان مبررا للاضطهاد والتعذيب بهدف تخليص المهرطقين منها، يقول رسل: «فالخوف من الجحيم كان (ولايزال حتى الآن بدرجة أقل)، مصدر قلق وفزع شديد، قضى على الكثير من السلوى والعزاء اللذين يستمدهما الإنسان من الإيمان بالخلود، وكان الدافع لإنقاذ الآخرين من نار جهنم يساق كمبرر للاضطهاد، ولأن إذا قام مهرطق بتضليل الآخرين وتسبب في إنزال اللعنة بهم، فإنه لا يمكن اعتبار أي درجة من التعذيب في هذه الدنيا تطرفا طالما أن هذا التعذيب يستخدم للحيلولة دون حلول هذه اللعنة الفظيعة»[2].

يخبرنا رسل أن رجال الدين يرفضون من يشك في العقيدة بحكم أن ذلك يقلل من دخلهم ويدمر أخلاق الواجبات الأخلاقية المستخلصة من العقيدة، فيعتقد رسل أن المبررات التي يقدمها رجال الدين تبدو غير مقنعة لأن الدين المسيحي يقوم على مجرد افتراضات والتي قبلت بها جميع البلاد المسيحية، وهي في نظر القارئ الحديث تبدو مخطئة أحيانا والتي لم ينتبه إليها المتعلمون في السابق، فالمبادئ التي تقوم عليها المسيحية حسب رسل تقوم على بعض الاتساق المنطقي والذي أوجب التصدي لها الهجوم عليها علميا، ويمثل توما الاكويني هذه النسقية التي لا تزال تسود الكنيسة الكاثوليكية الرومانية حتى يومنا هذا، فهذا الاتساق المنطقي في المسيحية حسب رسل فيه العديد من الأخطاء لأنه ينتقل من أحكام عامة افتراضية ويطلب التسليم بها دون برهان ثم يقيم عليها أحكام جزئية، بخلاف العلم الذي ينطلق من أحكام فردية جزئية للوصول إلى أحكام كلية؛ حيث يقول رسل: «فالتجربة أظهرت خطر التعميم والبدء بالمبادئ العامة لاستنباط الحالات الفردية منها، وذلك لسببين أولهما أن هذه المبادئ العامة قد لا تكون صحيحة، وثانيهما لأن الاستدلال العقلي القائم عليهما قد يكون خاطئا.[3]»

وفي هذا الاتجاه يؤسس رسل موقفه التحفظي من الدين باعتبار أن الكنيسة كانت ترفض التسليم بالحقائق العلمية، فاللاهوت كان نظاما منطقيا منفردا لا يخضع للتغيير أو التبديل، حيث يبين لنا ذلك رسل بالقول: «ومن ثم كان الميل إلى شن حرب ضد العلم على جميع الجبهات. وبالنظر إلى قدم اللاهوت، فإن الكثير منه كان مجرد جهل منظم يخلع القداسة على أخطاء لم يكن من المفروض أن تستمر في عصر التنوير[4]»، فالصراع بين العلم والدين عبر التاريخ يبدو جليا من خلال أشكال التصادم والمواجهة بين ورجال الدين والعلماء، بل منهم من أحرق ومنهم من أشنق ومنهم من وضع تحت المراقبة أمثال كبلر

1 المصدر نفسه، ص 104 .

2 المصدر نفسه، ص 132 .

3 المصدر السابق، ص 09.

4 المصدر نفسه، ص 38.

وغاليليو غاليلي وجوردانو برونو، وهذا ما يؤكد التعصب للمعتقدات الديني ورفض الحقائق العلمية بحجة مخالفتها للتعاليم الدينية، فاتهم هؤلاء بالكفر والهرطقة ظلما وجورا، «إنه يبدو أن رجال الدين يحاجون كما لو كانت الحياة هي هدف الخلق، وهم مخطئون في معرفتهم بعلم الفلك بقدر ما أسرفوا في تقدير أنفسهم وتقدير إخوانهم من البشر[1]»، ينهي إلى علمنا رسل. وما يجعل أيضا رسل مترددا بشأن الدين، هو بطلان فرضية السبب الأول: «سنجد أن فرضية السببية ليست على مستوى عال من اليقين[2]» يقول رسل، ومعنى هذا أن الدين يبني مسلماته على فكرة السببية التي تعني أن لكل ظاهرة سبب، فالظواهر مرتبطة فيما بينها ارتباطا عليا، في حين أن التجريبيين- بما فيهم رسل- لا يعتقدون بفكرة السببية، فهي محصلة العادة والاقتران ولا يمكننا حينئذ الاعتماد عليها في إثبات الحقائق سواء كانت تجريبية أو ميتافيزيقية. فقد نبذها رسل بعد أن قرأ جون ستيوارت ميل[3].

إن ما يعكر الحياة ومجراها حسب رسل، هو إثارة فكرة الموت، والتي تجتهد الأديان في إظهارها بشكل مخيف ومرعب، ويحول الحياة إلى مأساة بالفعل، ويبعث في الإنسان اليأس والفزع والقلق الوجودي والحيرة، فيعطف رسل على حياة الناس ويصفها بأنها بائسة خاصة إذا كنا ندرك أنها مسألة حتمية فيقول: «في بعض الأحيان حين أتأمل أستبصر في أحوال الناس وشؤونهم، فإنني أراها تعزية وسلوانا لهم، إن القصد من حديثي ليس إسباغ البؤس على الحياة، وإنما تنويه فقط من أجل لفت الأنظار إلى مواضع متوارية عنا».

بناءً على هذا، يعتقد رسل أن الكنيسة مصدر الشقاء والمعاناة للناس، تقف أمام كل محاولة تهدف إلى التخفيف من ألام الإنسان ومآسيه، حيث يقول: «إنكم ستلاحظون في كل أنحاء العالم، أن كل دعوة للإنسانية، وكل تطور في مجال القانون، وكل دعوة لمناهضة الحرب، وكل دعوة لمناهضة العنصرية والعبودية، وكل دعوة إنسانية أخلاقية حقيقية، ستلاحظون أن هذه الدعوات اتفقت كل الكنائس على محاربتها والتصدي لها بضراوة إ نني أصرح، وبكل ما أوتيت من ثقة، أن الدين المسيحي الممثل بكنائسه ومؤسساته، إنه الخطر الأكبر الممحق بأخلاق الإنسان.».

بالإضافة إلى ذلك، يرى رسل - دون مبالغة- أن الكنيسة مازالت تمارس الاستبداد، فهي تدعو وترغم الأفراد في الوقت الراهن على القبول والتقيد بتعاليم الكنيسة، فبعض مواقفها وتشريعاتها في غاية الهمجية والتي يجب حسب رسل الإقلاع عنها بغية تحقيق سعادة البشر، فالكثير من الممارسات الحالية للكنيسة، تتم تحت ذريعة ما تسميه الأخلاق، إلا أنها تمارس عكسها ضد أشخاص يفترض بهم أن لا يعانوا من كل هذا، وبالطبع، وكما نعلم ما تزال الكنيسة هي المعارض الأكبر لكل مشروع إنساني يحاول تقليص المعاناة البشرية.» يصرح رسل، هذا ويؤكد رسل دوما أن التاريخ يشهد بالقسوة والوحشية المرتبطة بشدة التدين،

1 رسل، النظرة العلمية، ص 101.

2 B. Russell, Why I am not Christian, Touchstone edition, London, 2004, p. 03.

3 ألان وود، برتراند رسل بين الشك والعاطفة، دار الأندلس للطباعة والتوزيع ط 1، 1984، ص 19.

فعصور الإيمان مع المسيحيين الذين يؤمنون إيمانا متصلا بتعاليم المسيح، كان هذا هو نفس الوقت الذي انتشرت فيه محاكم التفتيش ذات الجرائم الشنيعة، وهو نفس الوقت الذي أحرقت فيه ملايين النساء بتهمة الشعوذة، وهو نفس الوقت الذي مورست فيه كل أشكال البشاعة والظلم والعنف ضد الناس باسم الدين.

ولهذا يدعونا رسل إلى التحرر من مخاوف الدين ومواجهة الحياة كما هي، وقهر الصعوبات والعوائق باستخدام الذكاء والعلم وعدم الاستسلام لسلطان الخوف والوعيد ونشر بدله المعرفة والتسامح والشجاعة،لا إلى التباكي والحسرة على ما فات، ويجب أيضا إطلاق العنان لفكرنا وعقلنا والتحلي بالشجاعة لاكتشاف ما هو خفي وغامض، إننا بحاجة إلى الأمل من أجل المستقبل، فالماضي يتجاوزه في نظر رسل الحاضر الذي تصنعه العقول النابغة.

وهنا يتناول رسل الحديث عن الجانب الأخلاقي، مؤكدا أن التقدم الأخلاقي يتكون أساسا من الوقوف في وجه العادات التي تتسم بالقسوة والغلظة، وضرورة توسيع هذا المسعى ليشمل كل الناس عطفا وشفقة، وقد دعا الرواقيون في السابق إلى تعميم هذه الفضائل، ورأوا أنها لا تقتصر على الإغريق الأحرار فحسب، بل يجب أن تتعداهم إلى البرابرة والعبيد، بل إلى الإنسانية بأسرها في واقع الأمر، ومن ثمة تجاوز الأسس الأخلاقية البدائية التي كانت تعتبر مثل هذه القيم خطيئة لا تقبل ولا تغتفر. أما عن إمكانية تجسيد هذه الفضائل، فيعتقد رسل أن هذا الهدف صعب المنال. فيشير إلى خطورة الدولة على مصائر أفرادها في العصر الحديث، وعلى الأخص الدولة الشمولية، ففي الماضي كان المصلح الديني أو الأخلاقي يستطيع أن يصبر على الكثير من العنف والاضطهاد، بل الاستشهاد بنفسه في سبيل وصول صوته إلى مسامع الناس قبل أن يلقى حتفه، وهذا ما فعله-حسب رسل - سقراط والمسيح، ولكن الدولة الشمولية الحديثة تخمد أنفاس أية محاولة للإصلاح الخلقي،وهي في المهد، ولن تجدي معها أية تضحية بالنفس أو أية شجاعة أدبية، ويعطينا هذا فكرة عن مقدار الخطر الجسيم الذي يبدد الأمل في أي نوع من التقدم الأخلاقي في ظل الدولة التوتاليرية -الشمولية، ولهذا كله يكاد يتعذر على الفرد مهما بلغت قدراته أن يصل أثره في مجال الإصلاح الأخلاقي ما وصل إليه المصلحون السابقون في العصور الماضية. إذ أن المصلحين الدينيين والأخلاقيين بذلوا قصارى جهدهم لتوسيع رقعة التعاطف الإنساني والحد من قسوة البشر، إلا أن نتائج الإصلاح لم تبلغ الغاية المنشودة.

وينتقل رسل للحديث عن العلماء عبر التاريخ، فيصنفهم إلى نوعين، صنف ساهم بجهده لخدمة صالح الإنسانية خيرا، وصنف أخر ألحق بها ضررا بليغا، فالعلماء في مساعيهم للسيطرة على قوى الطبيعة واستثمارها إما أن يكون سعيهم للخير أو للشر، وفي هذا الصدد يميز رسل بين النظرة الميكانيكية أو الآلية والنظرة الإنسانية المعجب بها والتي تنال منه كل التقدير، باعتبار أن النظرة الآلية تعتبر الخير شيئا مستقلا عن الفرد، وانه يتحقق من خلال المجتمع ككل سواء كان التعاون على تحقيق ذلك طواعية أو قسرا، أما

المفهوم الإنساني فيعتبر الخير موجودا في حياة الأفراد، كما ينظر إلى التعاون الاجتماعي على أنه ذو قيمة فقط في الحدود الذي يسهم فيها في توفير سعادة كل المواطنين. هذا ويبين لنا رسل واجبات الأخلاقية للفرد نحو الآخرين، فيقول في هذا السياق: «...نخفف أحزانهم بأكف التعاطف، وتمنحهم الغبطة الخالصة للتعاطف الذي يفتر، بأن نقوي العزائم المنهارة ونوفر لهم الإيمان في ساعات اليأس، ونتوقف عن قياس مزاياهم وعيوبهم بمقاييس جامدة، ولنفكر فقط في احتياجاتهم، في الأحزان والصعوبات والقهر والعمى الذي يكتنف حياتهم ويسبب لهم البؤس»، ثم يرى رسل أنه يمكن توفير فرص النمو الطبيعي للأفراد إذا توفر عاملا العدالة والحرية، وإذا أمكن التوفيق بينهما، إذ أن العدالة تضمن للفرد ضرورات الحياة، والحرية توفر له تحقيق ذاته وسعادته، إلا أنه يشترط ألا تتجاوز حرية الفرد حرية الآخرين، فالواقع يكشف لنا في وقتنا الراهن وجود تعارض بين بعض جوانب أخلاقيات الفرد وبين أخلاقيات المجتمع، وهنا يقر رسل أنه لا يوجد إنسان حر حرية كاملة، كما أنه لا يوجد إنسان مستعبد عبودية كاملة، فحتى وإن كان الفرد حرا، فهو بحاجة إلى أخلاقيات شخصية توجه سلوكه، وإن كان بعض الناس يعتقدون أن الفرد لا يحتاج أكثر من إتباع القانون الأخلاقي السائد في مجتمعه، إلا أن رسل لم يقتنع بهذا الموقف، بدليل أن هناك بعض العادات قد اندثرت مثل أكل لحوم البشر وتقديم القربان وصيد رؤوس البشر وقطعها، كنتيجة للإجماع الأخلاقي ضد الآراء الأخلاقية البدائية ،حيث يقول: «وإذا كان للإنسان رغبة جادة صادقة في أن يعيش أفضل حياة، فعليه أن ينتقد العادات والمعتقدات القبلية السائدة عموما بين جيرانه. فالمنظومة الأخلاقية ينبغي أن يكون فيها انسجام بين مصلحة الفرد الشخصية والمصلحة العامة الاجتماعية، وهي وظيفة تلقى على عاتق المؤسسات الاجتماعية».

وبناء على هذا يقف رسل موقفا يؤكد من خلاله أنه لا يحق للدولة أن ترغم إنسانا، حتى إذا كان مخطئا، على الإتيان بعمل يجافي أفكار ضميره كما يرى أيضا أن بعض الثورات مشروعة في بعض الأحيان، حتى وإن كانت تجر إلى فوضى في أذيالها، فعندما تكون الحكومة الشرعية فاسدة بصورة مروعة، يجب التخلص منها عن طريق الثورة كما هو الحال في انكلترا وأمريكا، التي قام بها رجال تشبعوا بروح الحرية واحترام القانون ،أما إذا كان القائمون بالثورة لا يقيمون للقانون وزنا أو اعتبارا، تفضي الثورة إلى الفوضى والديكتاتورية.

كانت هذه بعض المبادئ التي آمن بها رسل وحاول الدفاع عنها، فمنها من كان ناقما عنها، وبعضها الأخر معجبا بها، أما واقع السعادة فيبدأ باستعراض أنواع الأذى التي يوقعها الناس بعضهم ببعض، التي لم تتناقص بكل وضوح، فما تزال هناك حروب واضطهاد وأعمال بربرية بشعة، وما يزال الناس الجشعين يتخاطفون الثروة من أولئك الذين هم اقل منهم مهارة أو أرق منهم قلبا، وما يزال حب السلطة يؤدي إلى استبداد أوسع أو إلى مجرد عوائق عندما تكون أشكالها أكثر غلاظة غير ممكنة، وما يزال الخوف العميق، الذي يمثل الدافع المسيطر في حياة أناس كثيرين. أما في علاقاتهم مع الوسط الطبيعي فهم لا

يبالون مطلقا بنتائج حركتهم الاقتصادية وأضرارها الايكولوجية المختلفة والاستغلال المفرط لخيرات ومصادر الإنتاج لاسيما بعد إدخال التقنية والأساليب التكنولوجية بغية تحسين عائدات الإنتاج كما وكيفا. فإذا كان العلم قد ساهم في تحرير الإنسان من سلطان اللاهوت،فهو أيضا تضمن جوانب سلبية جلية، سواء استخدام التكنيك واستغلالها سلبيا، وعن هذا يقول رسل: « وجميع الشرور التي يعاني منها زماننا ترجع إلى حد ما إلى القضية العلمية ومن ثمة فهي ترجع في نهاية الأمر إلى العلم.»، فيحذرنا رسل من اهتمام الناس المغالط بمصير الأرض، فلا أحد سيقلق على مصيرها، فاهتمامهم ينصب حول أشياء دنيوية، حيث يقول: «فلا أحد سيقلق على مصير الأرض لملايين السنين نتيجة لذلك، حتى وإن تصوروا أنهم يقلقون كثيرا حيال هذا الأمر، إنهم حقا يخادعون أنفسهم، إنهم يقلقون عن أشياء دنيوية طبيعية، وقد لا تكون إلا هضما للحقائق، إنه لا يوجد شخص أعلن قلقه واستيائه من مصير الحياة لملايين السنين.»( )، بل إن الخطورة حسبه تمتد إلى الكوكب برمته الذي بدأ يفقد توازنه ونظامه بفعل النشاط الاقتصادي الإنساني فهاهو يعبر عن ذلك بقوله: «يبدو أن الكون كان كله مرتبا في وقت من الأوقات، فكان كل شيء منه في مكانه الصحيح، ومنذ ذلك الحين أخذ نظامه في الاضطراب تدريجيا حتى أصبح لا يستطيع أن يعاد إلى سابق ترتيبه إلا بعملية كبرى تعيد إليه نظامه الرتيب».

يعتقد رسل أن كل الممارسات اللاأخلاقية لا مبرر لها بالضرورة، فليس هناك شيء في الطبيعة البشرية ما يدعو إلى مثل هذه السلوكات بشكل حتمي، وبهذا يخالف رسل من يعتقد بوجود دوافع فطرية وعدوانية إنسانية تتطلب الحرب واللجوء إلى العنف وأشكال أخرى من الصراع انطلاقا من تتبع ملامح العراك اليومي في استجاباتنا، مؤكدا أن لأشكال العراك دورا إيجابيا بالتأكيد من خلال المنافسة والإبداع والابتكار دون المبالغة في ذلك، حيث أن أشكال العنف الضارة بالإمكان حسب رسل التقليل منها إلى حد كبير، قائلا: «فإمكانيات الخير في هذا العالم الذي نجد فيه أنفسنا، غير محدودة تقريبا، وليست إمكانيات الشر بأقل من ذلك.. إلى درجة كبيرة».

أما على مستوى العلاقات الدولية فيدعو رسل إلى ضرورة مراعاة القيم الأخلاقية في الممارسة السياسية ونبذ أشكال الحرب والعنف والدعوة إلى فض الخلافات والنزعات داخل المجتمع الدولي بالطرق الدبلوماسية وتفضيل فتح قنوات الحوار بين الأطراف المتنازعة والسعي إلى تطويق بؤر التوتر بالمبادرات السلمية والتفاوض دون التفكير في نقل الخلاف إلى ساحة المعركة والمواجهة لاسيما في ظل التطور المذهل لوسائل الحرب النووية وتكنولوجية الدمار الشامل حيث يقول رسل: «والطريقة الوحيدة للهروب من هذا الواقع هو حل أكبر قدر ممكن من النزعات بالطرق القانونية بدل من مجابهات بالقوة.». ويؤكد ذلك أيضا «ليس من شك أن القوة التي تستخدم طبقا للقواعد والقانون هي أقل أذى من القوة التي تحركها الأهواء، فلو تسنى للقانون الدولي أن يسيطر على عواطف الولاء عند الناس سيطرة كافية في تنظيم العلاقات بين الدول، لأحرزنا تقدما كبيرا على وضعنا الحالي، الفوضى البدائية التي تسبق تشكيل القانون

هي أسوأ من سوء القوانين.» وهكذا يعبر لنا رسل عن قلقه الدائم بشأن ما يشهده العالم من تحولات سياسية واقتصادية أطاحت بكل المنظومة الأخلاقية والأدبية وأوجبت بما لا يدعو إلى الشك إلى شعور باليأس والخوف المستطيل، وفي ظل واقع أيضا حبلى بأشكال الجريمة من سرقة وانحراف واحتيال أصبحت الحياة لا تطاق،مما ترتب عنه ثورة سماتها اضطراب رعب وخوف من المذابح والحروب.و هذا يعني أن رسل كان مجموعة حساسة من المشاعر على الرغم من محاولته أن يكون عقلا مجردا، هنا يصف لنا رسل حالة الفرد في وسط هذه الملابسات بقوله: «إن العالم قد أصبح هكذا لا يطاق، متوترا ومشحونا بالكراهية، ومليئا بالتعاسة والألم، حيث فقد الناس قوة الحكم المتعادل، والذي يحتاج إليه للتخلص من التورط الذي يتخبط فيه الجنس البشري،إن عصرنا مؤلم لدرجة حيث أن اليأس قد حل بأحسن الناس».

وما يلاحظ هنا أن رسل يرفض الدين باعتباره عائقا أمام تحقيق السعادة الفردية والجماعية، لكن هناك من المعتقدات لا تفرض بالضرورة هذه القيود على التفكير والبحث المعرفي، بل على العكس من ذلك، فهي تدعو بشكل ملح إلى احترام الحريات الفردية والاهتمام بمطالب الفرد والجماعة، وفتح المجال أمام المبادرة الفردية، وبالتالي نعتقد أنه ليس من الموضوعية بشيء تعميم التجربة المسيحية على عموم الاعتقادات الإنسانية، وأخلاقيا يبدو أن رسل يرفض أيضا المفاهيم الأخلاقية التي تمثل عقبة في وجه أي تقدم نحو السعادة والانفتاح، إلا أننا نلمس تعميما غير مشروع وتنطوي على الكثير من المبالغة، فهذه المنظومة الأخلاقية في بعض جوانبها تعتبر شرطا أساسيا في التمتع بالسعادة كاحترام الغير والدعوة إلى التعاون والسلم.

الفكر الحر شرط تحصيل السعادة:

أما تشخيص واقع السعادة في جانبها الاجتماعي والعلمي، والبحث عن أثرها في سياق تعقيدات المجتمع وأساليب التربية ومعايير بناء العلاقات الاجتماعية، وثانيا، في ظل طغيان النزعة العلمية والاعتقاد أنه باستطاعتها حل كل المشكلات الإنسانية مادية أو روحية كانت.

فالواقع الاجتماعي للأفراد لا يبعث على السعادة مطلقا، ومن هنا يرغب رسل في إحداث تغيير شامل في النظم الاجتماعية القائمة، فالرغبة في إقامة نظام اجتماعي معين دون سائر النظم الأخرى، ترجع إلى بواعث سيكولوجية محددة ودوافع مستقرة في اللاشعور، كما تستند إلى مزاج الإنسان الفردي. فكثير من المواقف الاجتماعية تقوم على الخطأ حسب رسل، فمن أهمها شيوعا ،النظرة الاجتماعية المبنية على التحيزات المتوارثة ذات الصلة بالمعتقدات الراسخة التي توارثتها تلك المجتمعات جيلا بعد جيل، فيقول رسل: «ومع ذلك فمن الواضح الآن أن التربية الخلقية والعاطفية لم تزل تجري في اتجاهات خاطئة، وأنها قد أحدثت سوء تكيف، الذي هو مصدر الغش والجبن والغباء وما إليها من الخصائص العقلية التعيسة» ، والتي تتجلى بشكل واضح في التمسك بالتوجه الديني والأسرة والملكية الفردية بالرغم من تأثير التقدم الصناعي على ضرورة التخلي عن البعض منها، بحيث أن الناس لم يعودوا يخضعون لسيطرة الدين والعائلة

مثلما كانوا يخضعون لها في الماضي، وهذا ما يشير إليه رسل في قوله: «فالحب والأبوة والمتعة والجمال كلها أقل شأنا عند رجل الصناعة الحديث مما كانت عند أعيان الزمن القديم ن فالتحكيم والاستغلال هما أكبر شاغل لدى رجال الصناعة العلمية الحديثة»، وهناك عامل أخر، يرى رسل أنه يؤثر في أحكام الناس الغريزية على النظام الاجتماعي القائم فعلا، أو الذين يحلمون بإقامته، ويتلخص في ما إذا كان النظام الاجتماعي سيوفر لهم مستقبلا ما يتفق مع ما يرونه في أنفسهم من استعدادات وقدرات، بشكل يمكنهم من لعب دور إيجابي في سياق ذلك النظام المفترض، بمعنى إقامة نظام اجتماعي يمكنه من إطلاق العنان لطبيعته لآمرة والناهية.

هذا ويعيب رسل على بعض محاولات الإصلاح الاجتماعي التي يقودها بعض المصلحين والثوريين على النظم الاجتماعية السائدة، ذلك أن البعض من هؤلاء الفاعلين تحركهم الكراهية للظالمين أكثر مما يحركهم الحب للمظلومين، ومثل هؤلاء أشباه المصلحين يسعون للانتقام والتشفي من أعدائهم بعيدا عن السعي إلى رفع المظالم عن أصدقائهم، وهذه الطبائع تجد متنفسا لها في الوطنية والروح العسكرية. في هذا السياق، يرى رسل أن التركيب النفسي والجهاز الفكري لدى الإنسان الحديث لا يختلف في شيء من الناحية البيولوجية عن نظيرهما لدى الإنسان البدائي، وهذا الحقيقة البيولوجية تلقي الكثير من الضوء على سلوك الإنسان الحديث، فلو نظرنا إلى هذا السلوك الحديث لوجدناه أنه مردود إلى تركيبة الهمجية التي ورثناها عن الإنسان الأول، وما العداوات الحالية أساسا إلا استمرار لاشعوري لثنائية نفسية الرجل البدائي القديمة التي كانت تدفعه إلى التآخي والتعاون مع أفراد قبيلته، وتدعوه إلى كراهية القبائل الأخرى والحقد عليها، ضف إلى ذلك أن الإحساس - الذي لا يكاد يكون لاشعوريا- بوحدة المنفعة والمصلحة الجماعية يبدد الحقد والبغض في المجتمعات الحديثة، ولهذه الاعتبارات يعتقد رسل أن ممارسة الحياة وفق هذه المبادئ الفردية، يؤول إلى جعل النظام الاجتماعي أكثر تعاسة وقلقا، ويفقد تلك الحياة سعادتها وبهجتها .

ومن هنا كان رسل ساعيا إلى الأفضل ومعلقا أمالا عظمى على طرق وأساليب التربية الاجتماعية، قائلا: «ولو أمكننا التأثير في الفئة المتمدينة من البشر، بحيث تنمو لديهم الرغبة في إسعاد أنفسهم أكثر من الرغبة في إلحاق الأذى بالغير، وإذا أمكن إقناعهم بأن يوجهوا جهودهم للبناء لتحقيق الإصلاحات التي تعم فائدتها العالم كله، بدلا من العمل الهدام الذي يرمي إلى منع الطبقات أو الشعوب الأخرى من أن يلحقوا بهم في أي مضمار، لأمكن خلال جيل واحد إصلاح النظام الذي يتم على أساسه العمل كله إصلاحا يشمل الأسس والتفاصيل» [9]، من جهة أخرى، يرى رسل أن المجتمع في تقدمه، بحاجة إلى بعض الأفراد الذين يخرجون عن الأنماط السلوكية العامة، فكل نهضة تقريبا، سواء كانت فنية أو أخلاقية أو فكرية تعتمد على مثل هؤلاء الأفراد والذين يصبحون عاملا حاسما في التقدم من البربرية إلى التمدن، غير أن في المجتمعات الحديثة البالغة التنظيم تتجه دائما لتعطيل نمو النشاط الفردي،فيؤكد ذلك بقوله: «تحتاج الهيئة الاجتماعية في نجاحها، إلى عدد من الأفراد الذين لا يتفقون كليا مع النموذج العام، لقد اعتمد كل تقدم، من فني وخلقي

وعقلي، فعليا، على مثل هؤلاء الأفراد الذين كانوا عاملا حاسما في الانتقال من البربرية إلى المدنية» ، والملفت للانتباه أن رسل تفطن إلى أن هذه المبادرة الفردية المتمردة اجتماعيا، على النقيض من ذلك، قد تتحول في ذات الوقت إلى قوة إجرامية هدامة إذا لم تخضع لنوع من السلطة، ومن هنا تتضح معالم المشكلة حسب رسل بوضوح، فالتحدي الذي يواجه المجتمع الحديث في كيفية التعامل الأنسب مع هذا الوضع وطريقة الحفاظ على التوازن بين النظام العام ومكسب الحرية الفردية، فالتفريط في الحرية يؤدي إلى النمطية والتفريط فيها ينتهي إلى الفوضى.

أما في المجال التعليم، فيرى رسل أنه لا يمكن إصلاح النظام التعليمي إصلاحا حقا بدون إجراء تغيير شامل في الأوضاع الاقتصادية القائمة، فالإصلاح الاجتماعي لا يتحقق في نظره إلا بوجود منظومة تعليمية وتربوية متميزة والتي تساهم في تأهيل الفرد ومساعدته على امتلاك أدوات التكيف وأساليب التعايش مع الغير، فيجسد بذلك طموح السعادة والاطمئنان. فقد يثبت بمثل هذه الوسائل أنه أنجع علاج لأمراضنا، وقد يجعل من أحفادنا طلائع المجتمع الجديد، فالتعليم قادر على تشكيل الآراء والميل إلى تقدير الفن أكثر من تقدير المال والثروة كما كانت الحال في أيام عصر النهضة الأوروبية، وترقية ملكات الإبداع والخلق في الناشئة، وأما يحول بين الفرد وسعادته اجتماعيا، فهي مشكلة يواجهها التعليم بالدرجة الأولى في عصر طبع بطابع التصنيع والتقنية، فالإشكال يبحث في حدود الجمع بين التطابق في الفكر والسلوك والتنظيم الواسع الذين تفرضهما ظاهرة التصنيع وبعدها المادي، وبين الفردية والتلقائية اللتين يسعى إلى تحقيقهما الإنسان في بعدهما الروحي.فلابد في نظر رسل أن يكون التعليم مبدئيا، إلزاميا وعلى نفقة الدولة وتوجهه بما تراه صالحا، كمشروع مجتمع يستجيب لمتطلبات الحياة الاجتماعية والفردية الحديثة، غير أن واقع التعليم في الوقت الراهن لا يلتزم بهذه المسلمات، فنجد -حسب رسل- كلا التعليمين الخاص والعام تشوبهما عيوب عديدة، فتعليم الدولة يتسم بعيوب العالم الحديث المتمثلة في القومية وتمجيد التنافس والنجاح وعبادة الآلية والثناء على التطابق والتشابه واحتقار الفردية، وما يدعم هذه الحقيقة قوله التالي: «من اجلها كان يضحى بتقوية الذهن الناضج، لأن الذهن الناضج قد يحدث الشك، وكان يضحى بالعطف لأنه قد يتعارض مع حكم الأجناس أو الطبقات (المنحطة)،وكانت الرحمة تضحى من أجل الصلابة، والخيال من أجل العزم، ولو كانت الدنيا غير متغيرة لأمكن أن تكون النتيجة ارستقراطية دائمة، لها من المحاسن والمساوئ ما كان لأهل اسبرطة. «' ولم يتوقف الأمر عند هذين النوعين من التعليم، بل حتى التعليم الذي مارسته الهيئات الدينية الكاثوليكية لم يكن أفضل حالا، فهو يهدف إلى خلق الخضوع إلى السلطة وغرس الإيمان بالهراء حسب رسل، عن طريق التكرار وأثره المغناطيسي في مطلع حياة الإنسان، فإصلاح شأن التعليم في تصوره لا يكون ممكنا إلا إذا تمتع المعلم بالحرية التامة في إبداء ما يعتنقه من آراء دون أن يتعرض إلى الطرد أو التشريد بسببها، ما عدا في حالة إثبات عدم الكفاءة وصلاحيته للعمل، مع ضرورة التأكد من ذلك حتى لا يكون هذا الاتهام ذريعة يقصد منها التخلص من المعلم وأرائه التي لا تتماشى مع النهج العام للسلطة السياسية الحاكمة، هذا ويؤكد لنا هذه المطالب التربوية، فيقول: «أما السلطة التي تقوم على الإقناع

والتعليم وهداية الناس إلى الحكمة إدراك ممكنات جديدة للسعادة، هذا النوع من السلطة الذي يمكن أن يكون كله خيرا» .

ومن هنا يعترض رسل على التعليم الذي توفره الدولة لأنه ينهض على القومية وليس على العالمية، كما أنه يتغافل الفرد بكل طاقاته وإمكانياته كما لو كانت للدولة مصلحة مستقلة عن مصالح الأفراد، فالمسلم به حسب رسل أن الفرد هو غاية كل وضع اجتماعي، لا وسيلته، فيدافع عن هذا الطرح بالقول: «وفي هذا عندما أصرح أن التلاميذ يجب أن يعتبروا غايات لا وسائل، قد يعترض علي أن كل إنسان هو أهم كوسيلة منه كغاية.» ، وبالتالي يبدو أن ما تقدمه الدولة من أساليب تعليمية لا يكشف عن هذا الاعتقاد مطلقا، فهي تسعى إلى تكوين مواطنين صالحين، لا أفراد صالحين والفرق بينهما واضح، فالمواطن الصالح عادة يفتقد إلى الإنسانية الصالحة. فهو أكثر وفاءا لمقولات النظام لسياسي، بشكل يخلو تماما من التفكير والوعي الحرية.

ومن ناحية أخرى، فإن دراسة التاريخ في اعتقاد رسل بحاجة إلى تغيير شامل، فهو يدرس في الوقت الراهن من وجهة نظر قومية متعصبة ومليئة بالتحيزات ويقترح حلا جوهره توحيد كتب التاريخ التي تدرس في جميع أنحاء العالم وأن تقوم سلطة دولية بتأليفه، وبذلك تختفي النظرة القومية الضارة التي تهتم بمصلحة الدولة على حساب بقية العالم، فيؤكد هنا: «إن التعليم في التاريخ والدين وبعض المواضيع المثيرة للجدل هو مضر بشكل مؤكد ...، يعلم [التاريخ] الأولاد بأن دولتهم كانت دائما على حق تقريبا، منتصرة دائما، وأنها أنتجت كل الرجال العظام تقريبا وأنها تتفوق في كل النواحي على الدول الأخرى» . ويلح رسل أيضا على ضرورة اهتمام التعليم في كل بقاع العالم بمبدأين هما الولاء للأسرة قبل الولاء للمحيط القومي والثاني تشجيع المبادرة والحرية في الفردية مادامت هذه الحرية لا تجور على حرية الآخرين، وبهذا تتسع أفاق الفرد وطموحات فتعطي لحياته أكثر دلالة وسعادة.

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق

يمثل موقف رسل رد فعل ضد التوجهات الفكرية الحديثة المتفائلة بشكل لا محدود بالعلم والتقنية، والتي أبدت إعجابا بإنجازات الآلة وما وصل إليه التطور التكنولوجي والبحث العلمي من نتائج. فيعلل تحفظه بشأن هذا التطور الكمي في مجال المعرفة بحجة الأخطار التي ينطوي عليها العلم والتقنية في وقتنا الحاضر وما أحرزته من إنجازات، بمعنى أن رسل تنتابه عدة مخاوف فيما يخص استثمار واستخدام نتائج العلم والتكنيك، فالتقدم العلمي المادي وحده لا يكفي في نظره، فقد يكون مصدرا للشقاء التام، عوض أن يكون مدخلا للسعادة الإنسانية. فيؤكد هذا الموقف قائلا: «إن الاتساع الهائل في نطلق السيطرة العلمية يثير مشكلات اجتماعية جديدة ذات طابع أخلاقي، ولو نظرنا إلى كشوف العلماء واختراعاتهم في ذاتها، لكانت محايدة، ولكن القوة التي تكسبنا إياها هي التي يمكن تحويلها في اتجاه الخير أو الشر.ولكن ما يجعل نتائج العلم أشد خطورة في أيامنا هذه هو الفعالية لأدوات الدمار المتوفرة في الوقت الراهن « ، فالفرد يملك من وسائل الدمار والقوة الشيء الكثير ولكنه لا يتحلى بالحكمة لا في القليل ولا الكثير

. ومن هنا يقرر رسل أنه بإمكان العلم أن يتحول في نهاية الأمر إلى قوة ضارة تستخدم الوسائل العلمية المستمدة من العلوم المختلفة كعلم النفس وعلم الأعضاء وعلم البيولوجيا، وتوظيفها لاحقا في مجالات التعليم، فيستطيع القائمون على ذلك في إطار المجتمع العلمي، تكوين وتنشئة أجيال كالآلات الصماء، تفكر كما يريد حكامها أن تفكر، ومن ثمة تنعدم قدرتها على التمييز والفعل الإرادي المستقل، فعلى العالم في منظور رسل، إذا كان يبغي إسعاد البشر، أن يجعل العلم خادما مفيدا لا سيدا مستبدا يصبغ العقول وفق أهواء الحاكمين وشهواتهم. فيتضح هذا المعنى في قوله:»وهكذا أحل العلم شيئا فشيئا معرفة السيطرة، محل معرفة الحب ،وكلما اكتمل ذلك العلم،زاد ميلا بالتدرج إلى القسوة الساديـة ، والمجتمع العلمي فـي المستـقبل الـذي نتـخيله ،هو الذي إلتهم فيه باعث السيطرة باعث الحب، وهذا هو المصدر لمظاهر القسوة التي نخشى أن ينحسر عنها« لقد اعترض رسل على الكثير من الاتجاهات والمذاهب الفلسفية التي تهتم بالجانب التطبيقي للعلم دون مراعاة منظومة القيم الأخلاقية في الممارسة العلمية، كانتقاده للماركسية والبراغماتية، فيؤكد أنهما يستمدان قوتهما من الجانب التطبيقي للعلم، على أساس أن هذا الجانب نافع ومفيد ويمنح الفرد السيطرة على الطبيعة. فيعبر رسل عن امتعاضه عن هذه النظريات فيقول: «إذا استطاع الناس أن يحرروا أنفسهم من تأثير النظريات الساذجة المفرطة أو هذه المشاحنات التي تنشأ عنها، فسيكون من الممكن، باستعمال حكم التكنيك العلمي، أن يهيئ كلا من الفرصة للمجتمع والحماية للمجتمع معا، ولسوء الحظ فإن نظرياتنا السياسية أدنى ذكاء مما وصلت إليه من المستوى العلمي، ولم نتعلم بعد كيف نستفيد من معرفتنا ومهارتنا بالطرق التي تؤدي أكثر من غيرها لأن تجعل الحياة سعيدة بل ومشرقة أيضا»، ولعل هذه السيطرة هي الأخرى تتماشى مع رغبة الفرد في امتلاك أسباب القوة والسلطان، فالبراغماتية تمنح الفرد القدرة على صنع الحقائق أو فبركتها، كما أنها تضفي عليه قوة تصارع قوة الآلهة بفرض أن تتوفر لديه الوسائل العلمية الكفيلة بتحقيق ذلك وأن تتوفر لديه قوة بوليسية كافية، فهي ترى أنك لا تستطيع أن تجعل الشمس باردة ولكن يمكنك أن تضفي حقيقة براغماتية على قضية مفادها أن الشمس باردة إذا أمكنك أن تصفي كل إنسان تسول له نفسه إنكار ذلك. فالفلسفة الاداتية لا تحفل بفهم العالم، بل تهتم أكثر بتغييره ، فالتأمل الفلسفي في نظرها عبث لا طائل منه، أما المعرفة التكنولوجية فوقعها جلي عمليا، فهي تدفع نحو السيطرة على العالم الخارجي، وهنا نشير إلى النقد الذي وجهه رسل إلى هذه الفلسفة، فلكي لا تصير الحياة الإنسانية قاتمة مملة، فإنه من المهم أن نتحقق أن هنالك أشياء لها قيمة مستقلة تماما عن المنفعة، إن المفيد مفيد لأنه وسيلة إلى شيء أخر،و هذا الشيء الأخر إذا لم يكن هو أيضا وسيلة بدوره، يجب أن يقيم لذاته، لأن الفائدة لا تكون بغير ذلك إلا سرابا خادعا، في حين يلح رسل على القول بأن العالم في محنته الراهنة يحتاج إلى الحكمة أكثر من حاجته إلى المعرفة التكنولوجية، في هذا الصدد يقول: «نبدأ بهذه الملاحظة العامة، استطاعت العلوم أن تمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة، مما يعني إمكانية تحقيق سعادته ورفاهيته،وكان بالإمكان أن يكون هذا ممكنا لو كان البشر عقلاء، إلا انه في الحقيقة هم حزمة من

العواطف والغرائز، كنوع حيواني في بيئة مستقرة، وإذا لم يتم إطفاؤها بإحداث توازن بين دوافع شروط الحياة، وإذا تم تعديل هذه الشروط بشكل مفاجئ، فإن ذلك التوازن سيفتقد»، ويواصل أيضا قائلا: «فلقد حال بين الإنسان حتى الآن وبين تحقيق أماله جهله بالوسائل، وكلما اختفى هذا الجهل، تزايدت قدرته على تشكيل نفسه وتشكيل بيئته على النحو الذي يفضله، فالقوة التي يخلقها العلم تكون خيرة بقدر الحكمة التي يتميز بها الإنسان، وتكون شريرة بقدر ما في الإنسان من حمق، ولذلك فإن أريد للحضارة العلمية أن تكون حضارة خيرة، فقد وجب أن يقترن بزيادة المعرفة زيادة في الحكمة، وأعني بالحكمة الإدراك السليم لغايات الحياة» .

أما عن الماركسية فهو يرى بأنها تؤمن بالعلم إيمانا مطلقا، كما تؤمن بأن العلم وحده كفيل بتحقيق التقدم وإحراز السعادة والرفاهية وهو ما يتحمس له رسل أيضا واضعا الثقة بذلك في الأسلوب العلمي تفكيرا وإنتاجا، فيبين لنا هذا قائلا: «لقد عاشت أغلبية الجنس البشري منذ بدأ التاريخ الإنساني تحت وطأة البؤس والشقاء والظلم،وأحست بعجزها حيال حكم القوى اللاشخصية الصماء، إن هذه المساوئ لم تعد ضرورية لقيام مدنية، إذ يمكن القضاء عليها بمساعدة العلم الحديث والتكنيك الحديث، شريطة أن يستعمل هذا بروح إنساني وبتفهم لمنابع الحياة والسعادة»، إلا أن رسل لا يخفي خشيته وتخوفه من آثار العلم الضارة في المجتمع الإنساني والتي يلخصها في تركيز السلطة في يد الدولة بشكل متفاقم في العصور الحديثة بفعل تقدم وسائل الاتصال والمواصلات وبذلك ضيقت إمكانات الإبداع والابتكار لدى الأفراد، فيعلن عن ذلك بالقول: «من أجل هذا ينبغي أن ينظر إلى مستقبل المجتمع العلمي بتوجس، فالمجتمع العلمي في صورته الخالصة، وهي التي كنا نحاول رسمها، لا يتسق مع البحث عن الحقيقة، ولا مع الحب ولا مع الفن ولا مع المتعة ولا مع أي شيء من هذه المثل العليا التي اعتنقها الإنسان حتى الآن، فيما عدا مثل واحد وهو التقشف»، ويكشف عن هذا التسلط: «إن النزعة إلى البناء العلمي نزعة طيبة إن هي لم تتعارض مع غيرها من النزعات الكبرى التي تضفي قيمة على الحياة ولكن إذا أتيح لها أن تكبت كل شيء إلا نفسها ،أصبحت صورة قاسية من صور الطغيان «.

من جهة أخرى، يتجلى أثر العلم في كون المجتمع العلمي الحديث مجتمع عضوي ومتشابك مما استدعى خضوع وانقياد كل الدولة لنظام ومراقبة القانون الدولي الشامل، وهذا ما يسبب صراعات وخلافات قومية بين الدول المختلفة والتي قد تستخدم فيها وسائل الدمار الشامل. ولهذا يحبذ رسل استخدام العلم شريطة ألا يقضي على طاقات الفرد الإبداعية الخلاقة. هذا ويعلق رسل على هذه الفلسفات بأن قوة الإنسان محدودة، وأنه لضرب من جنون العظمة أن ننسى أن هناك حقائق تحدق بنا مستقلة عن رغباتنا في أغلب الأمر.فيتناقض خضوعنا للطبيعة تناقضا سريعا في عصرنا هذا، نتيجة لنمو العقل العلمي في نظر رسل، وما تزال المجاعات والأوبئة تحدث، ولكننا نزداد معرفة عاما بعد عام، بما يجب أن نفعله لتجنبها، وما يزال العمل الشاق ضروريا، ولكن ذلك ليس إلا، لأننا غير حكماء، فلو

تيسر لنا حسب رسل السلام والتعاون، لاستطعنا أن نحافظ على بقائنا بمقدار معتدل جدا من الجهد ، فإذا تأملنا في العلم ونتائجه، فإنها قد تفضي بنا إلى شيء من اليأس والقلق فيما تعلق بمصير الكون الذي نحيا فيه، فيؤكد رسل أنه إذا تدبرنا أمر الكون فقد نجده لا يبعث على الراحة، فمن الجائز أن تبرد الشمس أو تنفجر متناثرة وقد تفقد الأرض غلافها بحيث تصبح غير صالحة، ومما عجل بهذه المخاطر في اعتقاد رسل هو إيمان بعض الاتجاهات العلمية والفكرية في إشارة إلى الماركسية، بان هذه المسائل عرضية، وبناء على ذلك فهم لا يكترثون بالتأمل العلمي، فيقولون دعنا نستمر في القيام بمهمة إخصاب الصحاري وإذابة جليد القطب الشمالي وقتل بعضنا البعض عن طريق الوسائل العلمية التي تتحسن يوما بعد يوم، وسينسجم الخير عن بعض أوجه نشاطنا كما ينسجم الأذى عن بعضها الأخر ولكن أوجه نشاطنا جميعا تظهر قوتنا وسلطاتنا، وبهذا نصبح آلهة في الكون الذي لا يحكمه إله، فكان من الطبيعي أن يجد هذا الطرح معارضة من قبل رسل واستنكارا باعتبار أنه لا يكتفي بالانجازات العلمية والتكنولوجية، بل يفكر أيضا في آثار العلم ومزالقه، خاصة الافتخار والتمجيد والابتعاد عن فضيلة التواضع التي يجب حسبه أن يتحلى بها الإنسان والعالم على الخصوص.فيبين هذا: «هناك نوعان من الحروب دائما، الحروب التي تكون الخسارة فيها كارثية، وتلك التي تكون فيها الهزيمة وحسب، لسوء الحظ، يظهر لنا أننا ندخل عصرا ستكون فيه الحروب من النوع الأول، لقد سببت القنبلة الذرية،وإلى درجة أكبر القنبلة الهيدروجينية مخاوف جديدة، تتضمن شكوكا حول تأثير العلم على حياة الإنسان، وبينت بعض الشخصيات المتميزة بما فيها أينشتاين أن هناك خطر إبادة لكل أنواع الحياة على هذا الكوكب،لا اعتقد شخصيا بأن هذا سيحدث في الحرب القادمة، لكنني لا أنفي حدوثه في الحرب التي ستليها إذا سمح لها بالنشوب».

أما في معرض حديثه عن أهمية الأسلوب العلمي، فيعتقد رسل أنه يقوم على الشك ولا ينهض على يقين، ومن هذا المنطلق ينبهنا رسل أن بعض اعتقادات الحس المشترك تقتضي التخلي عنها، فهي تدل على أننا مضطرين على القبول البعض منها حتى ولو كانت تحمل تناقضا في حد ذاته، بمعنى أن الفرد الباحث يدخل في اعتباره دوما احتمالات الخطأ والصواب ولا بد لنا من معالجة كل القضايا بمنهج الشك الذي هو سمة التفكير العلمي الأصيل، فيقول رسل: «وقد يكون الشك أليما، وقد يكون جديدا، ولكنه على الأقل مخلص أمين، وثمرة من ثمار البحث عن الحقيقة، وربما كان الشك مرحلة مؤقتة، ولكن النجاة منه لا تكون بالعودة إلى العقائد المنبوذة، والتي تنتمي إلى جيل أغبى من هذا الجيل»، فيوضح لنا رسل كيفية الوصول إلى اليقين بالقول: «كل نظريات المعرفة يجب أن تبدأ من السؤال «ما الذي أعرفه ؟ «، وليس من السؤال ما الذي يعرفه البشر؟ لكن كيف يمكن لنا أن أعرف الذي يعرفه البشر؟ يمكن فقط بواسطة مشاهدات شخصية لما يقال في الكتب، وتحقيق الدليل المؤيد بأن ما يوجد في الكتب هو الصدق، فإذا أمكن لنا في نظر رسل أن نحمل الناس على اكتساب إطار فكري متشكك لا يقطع بيقين فيما تعلق بهذه القضايا، فلسوف تختفي غالبية شرور العالم الحديث وستصبح الحرب مستحيلة لان كلا من الطرفين سيتحقق من أن الطرفين لابد وأن يكونا على خطأ، وسيبطل الاضطهاد بعد زوال التعصب، فيؤكد هذا الافتراض قائلا: «وعلى النقيض

من النظرة اللاهوتية، كان انتشار النظرة العلمية حتى يومنا هذا سببا دون منازع في تحقيق السعادة البشرية»، وسيهدف التعليم إلى اتساع العقول لا إلى تضييقها كما هو الحال اليوم، وسيقع الاختيار على الناس لشغل الوظائف حسب كفاءتهم في القيام بالعمل وليس لأنهم يتبعون المسلمات اللاعقلية التي يدين بها من هم في السلطان، فيقرر إمكانية تحقيق السعادة بأننا نجد الشك العقلي-وحده-إذا أمكن توليده، سيكفي لتحقيق الفردوس، وعلى هذا الأساس يقرر رسل بأن العلم لا يؤسس على المطلقات بل تتمثل روحه الحقة في مبدأ التشكيك العقلي الذي يضع في اعتباره فرضية الخطأ والصواب.

قبل الانتهاء من عرض هذا المبحث، هناك بعض التعقيبات التي نعتقد أنه من أنسب الإشارة إليها، فالقيم الاجتماعية والأطر الفكرية التي اعترض رسل على الكثير منها، لا تشكل حاجزا أمام سعادة الإنسان، فيكفي أن المجتمع لا يتوانى في الاجتهاد لتحقيقها على أرض الواقع بتوفير الإمكانيات والوسائل المادية والمعنوية للإبداع والابتكار سواء في المجال العلمي أو الفني، فكما هو مؤكد تجريبيا، لا إبداع في ظل هذه الشروط الاجتماعية بمعية طبعا الشروط الذاتية ومن ثمة المساهمة في زيادة حظوظ الإنسان في الفوز بالسعادة. أما العلم فهو محايد كما أكد، رسل لكن هذا الحياد، قد يكون دافعا لاستخدام نتائج العلم سلبيا، وبالتالي لا بد من العمل على تحسيس المجتمع الدولي بمخاطر استغلال نتائج العلم والتقنية في غير مواقعها المنتظرة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر باللغة العربية:

1. رسل، بتراند، ما وراء المعنى والحقيقة، ترجمة: محمد قدري عمارة، القاهرة، 2005.
2. ، الفوز بالسعادة، ترجمة: سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980 .
3. ، سبل الحرية، ترجمة: عبد الكريم أحمد، القاهرة،1985 .
4. ، السلطة والفرد، ترجمة: شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1961 .
5. ، التربية والنظام الاجتماعي، ترجمة: سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.ط 2، 1985.
6. ، في التربية، ترجمة: سمير عبده. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1982.
7. ، النظرة العلمية، ترجمة: عثمان نويه، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 2007.
8. ، أثر العلم في المجتمع، ترجمة: صباح الصد يق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.
9. ،المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، ترجمة: عبد الكريم أحمد، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1986.
10. ، أسس لإعادة البناء الاجتماعي، ترجمة: إبراهيم يوسف النجار، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط4، 1983.
11. ، عبادة الإنسان الحر، ترجمة: محمد قدري عمارة، القاهرة، ط1، 2005.

12. ، الدين والعلم، دار الهلال، القاهرة، 1977.
13. ، حكمة الغرب، سلسلة عالم المعرفة، ت فؤاد زكريا، بيروت ،ج2، 1978.

المراجع باللغة العربية:

14. محمد مهران، مقدمة في الفلسفة معاصرة، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2004.
15. رمسيس عوض، برتراند رسل الإنسان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1984.
16. ، برتراند رسل المفكر السياسي، دار الطباعة والنشر، القاهرة ،1966.
17. ألان وود، برتراند رسل بين الشك والعاطفة، دار الأندلس للطباعة والتوزيع، بيروت ط 1، 1984.
18. ول ديورانت، قصة الفلسفة، مكتبة المعارف، بيروت، ط 6، 1988.

- المصادر باللغة الأجنبية:

1. B. Russell, Problem of philosophy, Library edition, London, 1976.
2. , My philosophical development, New edition, London, 1975.
3. , Mysticism and logic and other essays, Library book edition, London, 2008.
4. , why I am not Christian, Touchstone edition, London, 2004.
5. , L'avenir de la science, Edition Gallimard, Paris,1994.

- المراجع باللغة الأجنبية:

- Charles Pigde, Russell moral philosophy, Edition 2006